رسالة كتاب سيبويه وامتداداتها النقدية والبلاغية.

The Message of Sibawayh's Book and its Critical and Rhetorical Extensions.

د.هيدالله مولود مزايط•

جامعة مراكش/ المغرب

تاريخ الإرسال:2019/01/02 تاريخ القبول:2019/02/17 تاريخ النشر:2019/06/19

ملخص باللغة العربية: يتغيا هذا المقال إسناد فرضية مفادها أن سيبويه هو أب البلاغة والنقد العربيين، وأنّ عمله "الكتاب" يمثل الأساس الذي أقيم عليه الصرح النقدي والبلاغي العربي؛ ولهذا الغرض، سيتم تتبع الأسباب التي أمدت بها رسالة كتابه هذين الفنين العربيين، خاصة في أصولهما الأولى، وذلك عن طريق الكشف عن الخلفيات الابستمولوجية المتمكنة والموجهة للنظر النحوي عنده، وأثر ذلك على ميداني النقد والبلاغة.

الكلمات المفاتيح: سيبويه، رسالة "الكتاب"، النحاة، البلاغة، النقد.

Abstract: This article supports the hypothesis that Sibawayh is the father of Arabic rhétoric and criticism, and that his book "al Kitab" represents the cornerstones of these two Arab arts. For this purpose, we will follow the introduction of his book and will attempt to keeping track some notions that had important extensions in Arabic rhetoric and criticism.

Keywords: Sibawayh, Al Kitab, grammarians, rhetoric, criticism.

مقدمة: يعد كتاب سيبويه ظاهرة فريدة في تاريخ الفكر اللغوي، وثورة علمية عجيبة استطاعت بلورة حصيلة قرن من ثمرات تفكير العلماء المسلمين في اللغة العربية ابتداء من أبي الأسود الدؤلي إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، بلورته في صورة تبدو كاملة جعلت بعضهم يعتبره معجزة حقيقية، وجعلت البعض الآخر يشكك في أن يكون ذلك

•أستاذ بكلية الأدب العربي، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب/ mouzait79@gmail.com

متحجرة، بل جعل من التحليل النحوي منهجية لفهم الظاهرة اللغوية في اشتغالها الوظيفي، وأداة لا مندوحة عنها لفهم لغة القرآن الكريم.

ولعل هذا الأمر هو الذي جعل العديد من النصوص التراثية العربية تحبل بالكثير من عبارات الإعجاب والإطراء بالكتاب، وتعتبره أساس الفكر اللغوي العربي، ومعتَمد جُلَّ العلوم الإسلامية، فأبو عمر الجرمي (225هـ) مثلا يذكر أنه ظل ثلاثين سنة يفتي من كتاب سيبويه، وأبو حيان الغرناطي (745هـ) يقول: «فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب، إذ هو المُطلع على فهم الإعراب. فجدير لمن تاقت نفسه علم التفسير وترقت إلى التحقيق فيه والتحري أن يعتكف على كتاب سيبويه، فهو في هذا الفن المعول عليه»[1]، أما أبو الفكر المقاصدي، أبو أسحاق الشاطبي (790هـ) فيزكي كتاب سيبويه قائلا : «وكتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش، والمراد بذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يُبين في كل باب ما يليق به، حتى أنه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ في المعاني»[2].

إن كتاب سيبويه بهذا المعنى الذي أشار إليه هؤلاء العلماء–من القدماء والمتأخرين–هو صنعة إبداعية تتجاوز فعاليتها المعرفية وأثرها المنهجي ما تعلق بالمستوى النحوي، فسيبويه بالنظر إلى شمولية مقاربته يستحيل إلى سيميائي يمارس النظر والتفتيش في آليات اشتغال العلامات اللغوية في اللسان العربي في شتى أبعادها المعرفية والعلمية: نحوا وصرفا ولغة وفقها وتفسيرا وبلاغة ونقدا...

وانطلاقا مما ذكر، فالغاية من هذا المقال هو إسناد فرضية مفادها أن سيبويه هو أب البلاغة والنقد العربيين، وأن عمله "الكتاب" يمثل الأساس الذي أقيم عليه الصرح النقدي والبلاغي العربي، ولهذا سيسعى هذا المقال إلى تتبع الأسباب التي أمد بها كتاب سيبويه هذين الفنين العربيين، خاصة في أصولهما الأولى، وذلك عن طريق الكشف عن الخلفيات الابستمولوجية المتمكنة والموجهة للنظر النحوي عند سيبويه، وأثر ذلك على ميداني النقد والبلاغة؛ هذا بالإضافة إلى محاولة الربط بين "الكتاب" وبين بعض المصنفات البلاغية اللاحقة، على أساس تلمس وتتبع أثره وامتداد بعض أفكاره اللغوية في مصنفات مثل "سر الفصاحة" لابن خفاجة، و"كتاب البديع في نقد الشعر" لأسامة بن منقذ، و"الأسرار" و"الدلائل" لعبد القاهر الجرجاني، وغيرها من المؤلفات.

1- سيبويه إمام النحاة، الناقم على النحاة: إذا كان العظماء والعباقرة عادة ما يعتبرون فلتات من فلتات الزمان، فإنهم أيضا يمثلون تعبيرات صارخة عن أزمة من أزمات الوجود الإنساني في مجال من المجالات، يحاولون بما أوتوا من موهبة مواجهة تلك الأزمات وتجاوزها والإجابة عن أسئلتها الحرجة؛ وأكيد أن سيبويه لا يشذ عن هذا الأمر، فلا شك أن كتابه كان تأشيرا فارقا عن أزمة حقيقية تلبست بالفكر اللغوي العربي في عصره. ومن أجل الكشف عن هذه الأزمة نرى أنه من الضروري استدعاء نشأة سيبويه والظروف السوسيو-ثقافية التي حفت بتلك النشأة، لعل هذه العناصر تقدم لنا بعض الإضاءات التي يمكن أن تخدم غرضنا؛ لذلك، نقترح العودة إلى بدايات التأريخ للنحو والنحويين العرب، لنستجلي ما قيل عن سيبويه في العصور القريبة من عهده.

عرف القرن الرابع الهجري ظهور التأليف في كتب طبقات النحويين واللغويين، ومن هذه الكتب التي اعتنت بهذا الموضوع نذكر كتاب " طبقات اللغويين والنحويين" لأبي بكر محمد بن الحسين الزبيدي الأندلسي (379هـ)؛ في هذا الكتاب يستحضر الزبيدي الأندلسي مجموعة من القصص التي تحكي عن حياة سيبويه ورأي العلماء فيه، يهمنا منها قصتان: تمثل أولاهما بداية التحصيل العلمي لسيبويه، والثانية تصف مناظرته المشهورة مع بعض النحاة من الكوفة في مجلس الرشيد. بالنسبة للقصة الأولى، يخبرنا الزبيدي بأن سيبويه قدم البصرة ليكتب الحديث، فلزم حلقة حماد بن سلمة، " فبينا هو يستملي على حماد قول النبي (ص): (ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذتُ عليه، ليس أبا الدرداء)، فقال سيبويه:" ليس أبو الدرداء"، وظنه اسم ليس، فقال: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، وإنما (ليس) هاهنا استثناء، فقال سأطلب علما لا تُلحِّني فيه، فلزم الخليل فبرع"[3].

تريد أن تخبرنا هذه القصة–إلى جانب قصص أخرى مشابهة–أن عدول سيبويه عن طلب علم الحديث إنما هو نتيجة لوقوعه في خطأ نحوي، ولسعيه لطلب علمٍ لا يلحنه أحد بعد ذلك؛ لكن التأمل في هذه القصة قد يقودنا إلى التوقف عند الإشارتين التاليتين:

-**أولا:** لا نعتقد أن ارتكاب خطأ نحوي في ساحة الدرس لمرة واحدة أو مرتين، يجعل شخصا قَدِم خصيصا من قرية من قرى شيراز في بلاد فارس إلى البصرة لتحصيل علم الحديث، يعدل عن مساره المعرفي الذي شغف به، لمجرد أنّ أستاذا نبهه إلى أنه لحن في كلامه؛ إنّ هذا التحول عن الحديث نحو النحو لن يكون في نظرنا إلا لداعٍ قوي جداً، لعله شدة الحرج الذي ما لبث سيبويه يتعرض له من طرف أستاذه، بسبب لحنه المتكرر ونقد أستاذه الدائم له، ولعلّ ما يؤكد هذا الأمر ما نجده في النسخة

الأخرى من القصة، والتي يوردها الزبيدي أيضا، حيث ينقل لنا الراوي أنّه –أي سيبويه– " انصرف إلى الخليل، فشكا إليه ما لقيه من حماد"[4]، هذه النسخة الثانية تبين بوضوح أن الإحراج الشديد الذي تعرض إليه من طريف أستاذه هو الذي دعاه لمغادرة حلقة الحديث؛ وعلينا أن لا نغفل في هذا الموضع أن سيبويه كان دائم الاعتناء بصورته الخارجية المادية، فقد كان شابا نظيفا جميلا، معروفا بطيب رائحته...وفي ذلك إشارات دالة إلى اهتمامه وعنايته بصورته الخارجية المعنوية، فهو لن يقبل أن يُنال من شخصه وكرامته.

–**ثانيا:** أن سيبويه لم يعدُ في تقريره ذلك أن طبق القاعدة النحوية التي يتبناها النحويون، فـ"ليس" كما هو معلوم من أخوات كان ترفع الاسم وتنصب الخبر، وهذا ما طبقه سيبويه عندما قال: ليس أبو الدرداء؛ لكن يبدو أن القاعدة هنا لم تحمه من الخطأ، فـ"ليس" في هذا الموضع ليست على بابها، بل هي أداة استثناء، وهذا مما سيزيد من نقمة سيبويه على أستاذه وعلى النحويين بالذات.

نخلص من هذه القصة الأولى أن سيبويه تعرض في بداية تحصيله العلمي للتجريح والاستهزاء والحرج نتيجة لحنه، ولا نشك في أنّ هذا الحرج سيترك أثرا سلبيا كبيرا على علاقته باللحن وبمصححي اللحن، أي النحويين الذي يعتبرون أنفسهم حماة اللغة، والأمناء على قواعدها.

أمّا القصة الثانية، فهي المناظرة التي اشتهرت في التاريخ الإسلامي بالمناظرة الزنبورية، فهذه القصة المروية عن يحي بن ثعلب ومحمد بن يزيد المبرد، تشير إلى أن الكسائي أحضر مجموعة من أنصاره من النحاة: الفراء والأحمر وغيرهما، بينما كان سيبويه وحيدا؛ مرة أخرى سيقال لسيبويه:" لقد أخطأت ولحنت"، لكن هذه المرة ليس في بداية التتلمذ والتحصيل وأمام عدد قليل من طلبة العلم ومعلمهم، لحنُ سيبويه هذه

المرة سيكون بعدما بلغت شهرته الآفاق، وفي أعلى مجلس في البلاد، وبحضور نخبة العلم، وعلى مرأى ومسمع من حشد كبير من الجمهور؛ وإذا كان الحرج في المرة الأولى قد قاده إلى تغيير مساره العلمي، فإنّ الحرج هذه المرة أعظم وأشد، والمصيبة أدهى وأمر، فقد بُعث به إلى بلده، فيقال أنه ما لبث إلا يسيرا ثم مات كمدًا على حد تعبير الزبيدي[5].

حياة سيبويه بهذا المنظور المتشكل من هاتين القصتين، هي حياة بين لحن ولحن، وبين حرج وحرج، لحن وحرج أولين جعلاه يخرج بإرادته من حلقة الحديث، ليرسم لنفسه خطا معرفيا جديدا صار اسمه بموجبه مخلدا في لائحة العظماء واللوذعيين، ولحنٍ وحرجٍ ثانيين جعلاه يطرد من المركز (بعث به إلى بلده)، ليموت وحيدا وحزينا في الهامش، في شيراز ببلاد فارس، كمدا على ما تعرض له من إهانة في مجلس الرشيد؛ وبين هذا وذاك، نفور من اللحن، وكره لأولئك الذين يعتبرون أنفسهم أوصياء على اللغة، أمناء على أفواه العباد، أي النحويين.

علينا أن نؤكد في هذا الموضع – إذا كان الأمر يحتاج إلى تأكيد– أنّ وظيفة النحو في هذه المرحلة الأولى من التاريخ الإسلامي كانت وظيفة اجتماعية أخلاقية سياسية، فالنحويون كانوا يمثلون المؤسسة الرسمية الحريصة على دفع اللحن وحماية الهوية العربية الإسلامية عن طريق إخضاع العامة إلى النسق القواعدي المتعارف عليه بين العرب، فالنحو كما يقول ابن جني : «هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللّغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رُد به إليها...».[6]

انطلاقا مما ذكر، يبدو لنا أنّ سيبويه لا يمكن بحال أن يكون محتفظا بمشاعر الود والاحترام اتجاه هذه الفئة التي تمارس سلطتها اللغوية والثقافية لحصر إمكانات القول اللغوي العربي بين ما يجب أن يقال، وما لا يجب أن يقال؛ والسبيل للتأكد من هذا الزعم هو العودة إلى الكتاب نفسه، فكيف تحدث سيبويه عن النحويين في كتابه؟

من النصوص التي جاء فيها ذكر النحويين في "الكتاب":

1-باب في الجزء الأول من الكتاب بعنوان: «هذا باب ما استكرهه (عملية إكراه) النحويون وهو قبيح، فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب "يقول فيه:" وذلك قولك (ويح له وتب) و(تبا لك وويحا). فجعلوا التب بمنزلة الويح وجعلوا الويح بمنزلة التب، فوضعوا كلّ واحد منهما على غير الموضع الذي وضعته العرب». (الكتاب 398/1).

2- «وزعم يونس أنّ قوما من العرب يقولون: (أما العبيدَ فذو عبيدٍ) و(أما العبدَ فذو عبدٍ) يُجْرونه مجرى المصدر سواء. وهو قليل خبيث... كأنّ هؤلاء أجازوا (هو الرجلُ العبيدَ والدراهم)، أي للعبيد والدراهم، وهذا لا يتكلم به، وإنما وجْهه وصوابه الرفع، وهو قول العرب...وقد حملوه على المصدر فقال النحويون: (أما العلمَ والعبيدَ فذو علم وذو عبيد) وهذا قبيح». (الكتاب 458/1).

3- «وتقول (مررت برجل أسدٍ شدةً وجرأةً) إنما تريد مثل الأسد. وهذا ضعيف قبيح. لأنه اسم لم يجعل صفة، وإنما قاله النحويون تشبيها بقولهم: (مررت بزيد أسدًا شدةً)». (الكتاب 499/1).

4- «فإذا بدأ بالمخاطب قبل نفسه فقال "أعطاكني" أو بدأ بالغائب قبل نفسه فقال "قد أعطاهوني" فهو قبيح لا تكلم به العرب، ولكن النحويين قاسوه» (الكتاب 386/2).

5- «وأما قول النحويين (قد أعطاهوك وأعطاهوني) فإنما هو شيئ قاسوه لم تكلم به العرب، فوضعوا الكلام في غير موضعه، وكان هذا لو تُكلم به، كان هينا» (الكتاب 387/2).

6- «وتقول (كنت سرتُ حتى أدخلها) إذا لم تجعل الدخول غاية...وإنما هذا قول كان النحويون يقولونه، ويأخذونه بوجه ضعيف. يقولون: إذا لم يجز القلب نصبنا فيدخل عليهم (قد سرت حتى أدخلُها) أن ينصبوا، وليس في الدنيا عربي يرفع (سرت حتى أدخلها) وإلا وهو يرفع (قد سرت).» (الكتاب20/3).

7- «وأما قول النحويين: يجازى بكل شيء يستفهم به، فلا يستقيم، من قبل أنك تجازي ب(إن) وب(حيثما) و(إذما) ولا يستقيم بهن الاستفهام». (الكتاب 67/3).

تبرز هذه المقاطع النصية-المأخوذة من الكتاب دون استقصاء كامل-أنّ سيبويه حريص على تغليط النحويين وبيان هفواتهم، وهو يشنع عليهم بعض تصرفاتهم في القول، ويصفها بأوصاف من قبيل: القبيح والقليل والخبيث والضعيف وغير المستقيم إلى غير ذلك...وهو إلى جانب هذا التشنيع، نجده يدأب على بيان تهافت منهجيتهم، من خلال الحرص على التأكيد كل مرة أن النحويين يخالفون ما تواضعت عليه العرب في كلامها، وما استعملته في مخاطباتها؛ إنّه يسعى بذلك إلى نزع السلطة عن النحويين وإرجاعها إلى المنقول الصحيح عن كلام العرب.

إنّ هذه المقاطع النصية تؤكد صحة الافتراض الموجِّه الذي انطلقنا منه في بداية هذا المقال، وتبين بالملموس أنّ سيبويه ناقم على النحويين، وساخط على منهجم في التعامل مع الظاهرة اللغوية ومع متكلمي اللغة العربية، ورافض لاستفرادهم بالسلطة اللغوية المعيارية التي تخول لهم تلحين العباد، وتجعلهم يضبطون أقوال الناس بين صحيح يجب القول به، وسقيم يجب النأي عنه.

إنّ ما توصلنا إليه لحد الساعة يجعلنا نتوق بشغف لنعرف كيف جعل سيبويه من مصنفه " الكتاب" فرصة لتصفية الحساب مع النحويين، ومجالا لتصحيح المسار الذي أُخذت فيه الدراسة اللغوية في هذا العصر؛ وسيكون تركيزنا في هذا المجال على رسالة "الكتاب"، وهذا التركيز على الرسالة دون غيرها راجع: أولا إلى ضيق مجال المقال، وثانيا لما تتسم به هذه الرسالة من قيمة معنوية في فهم استراتيجية سيبويه في التصنيف. فكيف تعامل سيبويه في رسالة كتابه مع منهجية النحويين؟ وكيف سعى إلى نزع سلطتهم؟ وما أثر ذلك على دراسة اللغة العربية؟

2- رسالة كتاب سيبويه: الخصوصيات والمقاصد: تجدر الإشارة أولا إلى أنّ المقصود برسالة الكتاب هي تلك المقدمات أو الأبواب السبعة التي دشّن بها سيبويه كتابه، وهي:

* باب علم ما الكلم من العربية.
* باب مجاري أواخر الكلم من العربية.
* باب المسند والمسند إليه.
* باب اللفظ للمعاني.
* باب ما يكون في الألفاظ من الأعراض.
* باب الاستقامة من الكلام والإحالة.
* باب ما يحتمل من الشعر.

وأما مصطلح "رسالة" الموضوع للإحالة على هذه الأبواب السبعة، فيبدو أنه كان دارجا بين المشتغلين بالدرس السيبويهي منذ القدم، فهذا الزجاجي المتوفى سنة337 هـ يقول في بداية كتابه "الإيضاح في علل النحو" في باب أقسام الكلم: « نبدأ بما

يسأل عنه أصحاب سيبويه وما يحتج به له...وفي ذلك احتجاج ونظر لم نقصد له في هذا الكتاب لأنا قد شرحناه في كتاب شرح الرسالة بجميع ما فيه»[7].

إنّ رسالة كتاب سيبويه، التي طالما تم اعتبارها بمثابة أبواب عادية من الكتاب، وتم تجاهل قيمتها الابستيمولوجية من طرف مؤرخي النحو العربي على حد تعبير أحمد العلوي[8]، تمثل أكبر رد على أولئك الذين يدعون أن هذا السفر النحوي العظيم يخلو من النظام، وبأنه مرتع للفوضى في العرض، والعشوائية في البناء.

وقد يقول قائل إنّ هذا الكلام على أن تلك المقدمات تشكل رسالة الكتاب ومقدمته لا يستقيم حتى يُتحقق من وعي سيبويه بأنه بصدد كتابة مقدمة للكتاب، لذلك فإننا نسارع بالقول إنّ سيبويه كان على وعي بما يصنع، وعلى بينة بما يفعل، ولا أدل على ذلك من قوله في آخر مقدمة من هذه المقدمات: « وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا، لأن هذا موضع جُمَل، وسنبين ذلك فيما يستقبلإن شاء الله»[9]، فحديثه عن أنه في موضع جمل إشارة على وعيه بأنه في مجال ذكر المبادئ العامة والأصول الجامعة التي تحكم توجهاته الكبرى في كتابه.

إنّ تلك المقدمات السبع تقدم خدمة معتبرة في فهم المنهج التحليلي الذي يصدر عنه سيبويه في ترتيب أبواب كتابه، فهي تبرز إواليات التعاطي السيبويهي مع الظاهرة الكلامية في شموليتها من حيث جميع المستويات البانية للنسق النحوي: البناء الشكلي والبناء الإعرابي والبناء الدلالي والبناء التداولي.

في الباب الأول الذي اختار له سيبويه عنوان:" باب علم ما الكلم من العربية"، يقسم صاحب الكتاب الكلام العربي ذلك التقسيم الذي ترسخ في كتب النحو اللاحقة،

أي اسم وفعل وحرف، وهو يحد هذين الأخيرين، أي الفعل والحرف، بينما يكتفي بالتمثيل للأول.

أما الباب الثاني، المعنون بـ"هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية"، فهو أغنى أبواب الرسالة وأخصبها، وهو حافل بالأحكام والقوانين التي تشكل الخلفية المعرفية والضوابط المتحكمة في النظر النحوي العربي، ومن هذه الأحكام يمكن أن نذكر:

- لكل كلمة معربة علامة يقتضيها العامل، يكون موضعها هو حرف الإعراب، وفي ذلك تأكيد من سيبويه على الأساس العاملي المنظم لأنماط التفاعلات بين الوحدات اللغوية.
- اعتبار الواقعة اللغوية جسما طبيعيا، فالمقولات النحوية محل لتراتبية محورها الثنائية ثقل/خفة أو متمكن/ غير متمكن، ومن مظاهر هذه التراتبية نذكر:

- «واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء، لأن الأسماء هي الأولى، وهي أشد تمكنا، فمن تم لم يلحقها تنوين ولحقها الجزم والسكون، وإنما هي من الأسماء» (الكتاب 46/1).

- ويقول: «الاسم قبل الصفة، كما أنه قبل الفعل» (الكتاب46/1).

- ويقول أيضا: « واعلم أن النكرة أخف عليهم من المعرفة» (الكتاب47/1).

- ويقول: «واعلم أن الواحد أشد تمكنا من الجمع، لأن الواحد الأول» (الكتاب47/1).

- ويقول «واعلم أن المذكر أخف عليهم من المؤنث لأن المذكر أول وهو أشد تمكنا، وإنما يخرج التأنيث من التذكير»، ويضيف «فالتنوين علامة للأمكن عندهم والأخف عليهم، وتركه علامة لما يستثقلون» (الكتاب 47/1).

إنّ سيبويه في هذه النصوص، ينظر إلى الكلام على أنه ظاهرة طبيعية، وعلى أن مقولاته هي بمثابة مقولات مادية، تتمايز بخصائصها الفيزيائية، تصيبها الخفة والثقل، كما تعتريها الحركة (الإعراب) والجمود (البناء)، والكلمات بهذا المنظور تحمل ميزانا للكميات معادلا للميزان الطبيعي في الأجسام، فالاسم أخف من الفعل، والمذكر أخف من المؤنث، والمفرد أخف من المركب (المثنى والجمع)، والنكرة أخف من المعرفة...

ولا يقتصر هذا التصور المادي عند سيبويه على مجرد إفراد هذه الظواهر اللغوية بهذه الاصطلاحات وتلك التسميات، بل يتعدى الأمر ذلك إلى اعتبار ذلك التصور المادي في تصرفات تلك الوحدات الكلامية وتقديمه بوصفه منوالا تفسيريا لفهم مسلكياتها في التراكيب، فخفة الاسم ناتجة عن دلالته على معنى في نفسه وعدم اقترانه بلوازم معينة أخرى غير بنيته، بينما ثقل الفعل صادر عن دلالته على أكثر من معنى واحد من حدث وزمان واقترانه بلوازم متنوعة يتصرف فيها، وبذلك يكون معيار الخفة والتمكن ناتجا عن مبدأ الثبات والتحول، فالمعرب متغير في وظيفته وموقعه وبذلك تتغير حركته، ولذلك تزداد خفته، أما المبني فحركته ثابتة بالرغم من تحرك وظيفته النحوية، وهو بذلك مدعاة للثقل.

وبانتقالنا إلى الباب الثالث المعنون ب" هذا باب المسند والمسند إليه" نجد تأكيد سيبويه مبدأ الاحتياج، فالمسند والمسند إليه لا يستغني أحدهما عن الآخر ولا يجد المتكلم من أحدهم بُدا، وفي هذا الباب تأشير من سيبويه على تعالق الكلام وضرورة انبناء مكوناته بعضها على بعض حتى تتحصل الإفادة، كما نجد سيبويه في آخر هذا الباب ينقل التراتبية التي اشتغل بها في الباب السابق في مستوى المقولات المفردة، نجده ينقلها إلى مستوى أكبر هو الكلام، حيث نراه يقول: «إن الابتداء أول كما كان

الواحد أول العدد والنكرة قبل المعرفة» (الكتاب48/1)، ومعنى هذا الكلام أنّ الأصل هو الابتداء بالاسم في تكوين الجملة، فالأصل هو الجملة الاسمية، لكن قد يدخل على الاسم بعض العوامل الأخرى التي تؤخر الاسم.

في الباب الرابع، والذي عنون بـ"هذا باب اللفظ للمعاني"، وهو باب قائم على تأكيد تعالق النحو بالدلالة، يواصل سيبويه بسط مظاهر التنوع والاختلاف التي قد تعتري توظيف الوحدة اللغوية في الكلام، فالكلمة قد تستقل بمعناها فلا يعوضها شيء، وذلك يكون عند اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، وقد يمكن إيجاد بديل عنها عندما يختلف اللفظان والمعنى واحد، وقد تظهر الكلمة الواحد بمعنيين مختلفين أو بمعان مختلفة إذا كانت من باب اتفاق اللفظين والمعنى مختلف.

أما الباب الخامس" باب ما يكون في اللفظ من الأعراض"، فيعرض فيه سيبويه للتغيرات التي قد تطرأ على الكلام، وقد ركز سيبويه في هذا الباب على ثلاث ظواهر: الحذف والاستغناء والعوض، وهي قواعد صرفية لا ينشأ عنها تغيير كبير في المعاني، وإنما هي لاحقة بالألفاظ.

في الباب السادس، وهو باب مشهور،" باب الاستقامة من الكلام والإحالة"، يقسم سيبويه الكلام إلى نوعين: كلام مستقيم، وهو الكلام الجائز، وكلام محال، وهو الكلام غير الجائز، أما الكلام الجائز فهو مراتب، فهناك الكلام المستقيم الحسن، والكلام المستقيم القبيح، والكلام المستقيم الكذب. أما الكلام غير الجائز، فهو نوعان: كلام محال، وكلام محال كذب. وبغض النظر عن الاختلافات التي وقعت بين الدارسين في تتبع مقصود سيبويه بمصطلحات "المستقيم" و"الحسن" و"المحال" و"القبيح" والكذب"، فالذي يثير انتباهنا هو حرص سيبويه على بيان تعدد وتباين مستويات الكلام.

ويختم سيبويه رسالة كتابه بالباب السابع، المتعلق بـ "باب ما يحتمل الشعر"، وهو باب طريف يحرص فيه صاحب الكتاب على التنبيه إلى أنه قد يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام العادي، من صرف ما لا ينصرف، وحذف ما لا يحذف، ومد ما لا يمد، وفكّ ما ضُعِّف، كما أنه قد يحتمل في الشعر ما يقبح في الكلام العادي، كتقديم الفاعل على فعله، وجعل ما لا يجري في الكلام إلا ظرفا بمنزلة غيره من الأسماء. والشيء المثير في هذا الباب، أن سيبويه يختمه ويختم الرسالة معه بالتأكيد أن هذه التغييرات التي قد تقع في الشعر ليس مردها فقط ما أطلق عليه لاحقا بالضرورات الشعرية، أي الإكراهات المتعلقة بضوابط الإيقاع الموسيقي الدقيق التي تُفرض على الشعراء أثناء نظمهم، فهو يقول: « وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها» (الكتاب65/1)، فالتغييرات التي تلحق بالبنيتين الصرفية التركيبية ليست فقط استجابة لمستلزمات الإيقاع العروضي العربي، ولكنها في الواقع تعكس إرادة لاستحصال وجه من وجوه المعنى بحسب ما يقتضيه السياق التواصلي.

الآن، بعدما استعرضنا أهم مكونات رسالة الكتاب، يحق لنا أن نتساءل كيف يمكن أن نقرأ ما ذكره سيبويه في رسالته على ضوء ما قلناه من سعيه الحثيث لنزع سلطة النحويين على الكلام وتصفية الحساب معهم؟

تقدم مكونات هذه الرسالة الموجهات العامة التي تبين كيف يريد سيبويه أن يكون التعامل مع الظاهرة اللغوية، وهي تحدد الضوابط العامة التي تحكم مقاربته لها في كتابه، ويمكن إجمال هذه الضوابط في:

- يكشف سيبويه في بداية هذه الرسالة عن الأسس والخلفيات المعرفية التي ينهض عليها التحليل النحوي، هذه الأسس ذات الطبيعة الضمنية يسعى سيبويه إلى

إبرازها وكشف اللثام عنها حتى تصير معروفة بين الناس، وهدفه من هذا الفعل هو نزع سلطة النحويين الذين لا يعرف من قولهم إلا أصبت أو أخطأت، فها هي الآن الضوابط العامة التي يستعينون بها في تلحين القوم قد أصبحت متاحة بين الناس.

- يحرص سيبويه على التأكيد على أن هناك دائما أصول وفروع، فمن المقولات النحوية ما هو متمكن في بابه، ومنها ما هو غير متمكن، وتمكن المتمكن راجع إلى أوليته وخفته، وهذا أمر يدخل في بيان كشف الأصول العامة التي تتحكم في النظر النحوي العربي.

- إنّ مقدمات الكتاب تبين أن هناك طابعا معياريا للظاهرة اللغوية، لكن هناك دائما تغيرا أو خروجا عن تلك القاعدة وخرق لها: فالكلمة تتعرض للحذف والاستغناء والعوض، كما أن معناها قد يستقل بنفسه كما يرادف أو يشترك مع معانٍ أخرى، ونفس الأمر يقال عن الكلام أو الشعر، فقد يلحقهما تقديم أو تأخير أو حذف أو عدول...وكل ذلك يجعل الضوابط التي يضعها النحويين لتلحين القوم محط إشكال.

- يحرص سيبويه في هذه الرسالة على بيان اختلاف التراتب بين الكلام، فالكلام ليس على صعيد واحد، وليس في مرتبة واحدة، فالكلام قد يكون مستقيما حسنا، كما قد يعتريه القبح أو الكذب أو الإحالة... والكلام ليس هو الشعر، وهذا الاختلاف بين مستويات الكلام يجعل الضوابط النحوية تختلف، وفي هذا رد على النحويين الذين يعتبرون أن وظيفة النحو هو ضبط ما يقال وما لا يجب أن يقال، فالكلام يختلف، وقواعده من ثم تختلف.

- إنّ الاختلافات والتغييرات التي تصيب الواقعة اللغوية ليست دائما من مظاهر أوجه الخطأ الذي قد يعتري الكلام، فكل تغيير صح وروده عن العرب مقصود لتحقيق أهداف: كالاتساع في الحديث أو للضرورة الشعرية أو لمقتضيات التواصل، وبذلك

يكون معيار الصحة ليس هو تطبيق القاعدة من عدمه، ولكن معيار الصحة هو مدى موافقة القول لما جرت عليه العرب في كلامها، ومناسبته للمقاصد التداولية للمتكلم.

وتقودنا الملاحظات الأخيرة إلى أن من يجب أن يتحكم في سلطة القول ليس النحوي أو الوضع اللغوي، ولكن الذي يمتلك تلك السلطة حقا هو المتكلم، الذي يتصرف في القول بما تمليه عليه إمكانات الكلام وغايات التواصل؛ وبذلك يكون سيبويه قد نظر إلى الظاهرة اللغوية بوصفها واقعة اجتماعية تتحكم فيها مجموعة من المتدخلات: المتكلمون ومعتقداتهم وتصوراتهم وأحوالهم النفسية، ثم وضعيات التخاطب وما يتلبس بها من زمانٍ ومكانٍ ومقام، ثم مقاصد القول وأغراضه التواصلية، إلى غير ذلك...وهذا الأمر يعد رفضا لاعتبار الظاهرة اللغوية جملة من القواعد الجافة والجامدة، التي على المتكلمين إما الخضوع لها، أو التعرض لتقريع النحويين.

إنّ سيبويه من خلال ما ذكر إلى حد الآن، ينقل الدراسة اللغوية من معترك النحو كما تعورف عليه في عصره، أي من سلسلة القواعد المتعارف عليه منذ الوضع الأول، والتي على الكل الخضوع لها إذا ما شاؤوا البراعة في اللغة وتفادي التلحين وما يستتبعه من حرج، ينقلها من معترك النحو إلى معترك البلاغة، وينقل سلطة القول من سلطة الواضع إلى سلطة المتكلم.

وإلى جانب هذا الأمر، يحرص سيبويه على إثارة الانتباه إلى قضايا المعنى وطرق تأديته، مع الإشارة إلى الاختلافات القائمة بين مكونات الخطابات وخصائصها، وما يشكل محددات تفردها وتميزها، فالكلام العادي ليس كالشعر، والتركيب اللغوي العادي ليس كالتركيب المجازي التخييلي، والكلام العادي بدوره مورد لأصناف التعبير:

الحسن والقبيح والجائز، وكل تلك ظواهر شكلت المواضيع التي عنيت بها البلاغة فيما بعد، سواء في علم المعاني أو علم البيان.

إنّ سيبويه بتصديه للنزعة المعيارية التي سيطرت على النحو العربي، ورفضه لصورنة القواعد النحوية في رسوم وأشكال جامدة، وعمله على الربط بين النحو والمعنى، وبين الأشكال التعبيرية ودلالاتها على المقاصد التواصلية...بكل ذلك، يكون قد فتح الباب مشرعا لنشوء البلاغة العربية، ذلك العلم الذي سيهتم بدراسة الأساليب العربية، وأنماط العدول التي تعتريها، والخصوصيات الجمالية التي يتميز بها الكلام الرفيع عن غيره.

3- رسالة كتاب سبويه وامتداداتها النقدية والبلاغية:

إذا ثبت، فيما سطرناه لحد الساعة، الدور الفاعل لسيبويه في تأسيس صرح البلاغة العربية، فإنه يهمنا الآن أن نتتبع بعض الآثار المباشرة وغير المباشرة لهذه الأصول النحوية التي وضعها سيبويه في رسالة كتابه على بعض المفاهيم والمصطلحات النقدية والبلاغية التي نجدها مبثوثة في كتب النقد والبلاغة العربيين، خاصة في القرون الأولى، أي قبل أن ينفصل النقد عن البلاغة وتصير البلاغة – كما يقول البعض–علما ناضجا حدّ الاحتراق مع السكاكي؛ ومن هذه النماذج التي نجدها في رسالة الكتاب: الخفة والثقل، الأصل والفرع، العدول، الحذف، التقديم والتأخير، التوسع، التعريف والتنكير، معنى الجملة الاسمية والفعلية، المحال في الكلام والشعر، الكذب في الكلام والشعر وغير ذلك.

ولن يسعنا أن نقف عند كل هذه النماذج والمبادئ، كيف ظهرت في كتاب سيبويه وكيف امتد أثرها في مصنفات البلاغة والنقد العربيين، لذلك سنقف عند بعض

منها، مما قل اهتمام الدارسين به؛ والأصول التي سنقف عندها هي: أولية الخفة والثقل، وأولية الإفراد على الجمع، وأولية التذكير على التأنيث:

أ-أولية الخفة على الثقل: أشرنا سابقا، إلى أنّ سيبويه يعتبر الخفة والثقل مؤشرا على التمكن النحوي؛ وتبرز إحصائيات حضور جذر (خ ف ف) في 'الكتاب' أهمية هذا المؤشر في النسق النحوي لسيبويه، ف(أخف) ترد 100 مرة، و(خفف) 97 مرة، و(خفيف) 83 مرة، و(تخفيف) 53 مرة، و(استخفاف) 22مرة، و(استخف) 14 مرة[10]، والملاحظ على أشكال توزيع هذا المصطلح أنه يوظف في مختلف مستويات التحليل اللغوي عند سيبويه، فالخفة/ثقل معيار لتفسير بعض الظواهر الصوتية والمورفولوجية والتركيبية، فمن ذلك قوله «فإذا كانتا ساكنتين (الواو والياء) وقبلهما فتحة مثل موعد وموقف، لم تقلب ألفا لخفة الفتحة والألف عليهم، ألا تراهم يفرون إليها» (الكتاب 479/4)، ومنه أيضا «وقال الخليل، هو كائنُ أخيك، على الاستخفاف والمعنى هو كائنٌ أخاك» (الكتاب 221/1).

ارتبطت مسألة الخفة والثقل بعد سيبويه في النقد والبلاغة العربيين بما صار يطلق عليه فصاحة الكلام، أي ما تعلق بهيأة الكلمات من حيث سهولة المخارج وانسيابية التأليف، حيث اتفق النقاد والبلاغيون على أن خفة الكلام تترك إيقاعا نفسيا يرتضيه الطبع وتستحسنه الذائقة الجمالية، كما نبذوا الثقل في الألفاظ واستوحشوا الكلام المتقعر الغريب.

ويعتبر عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، انطلاقا من نظريته في النظم، أنّ خفة واستثقال الكلمات ليس مصدره خصوصياتها الصوتية الذاتية، بل موقعها من التأليف، وموضعها في التشكيل، ذلك «أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها

بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر» [11]؛ وإن كان عبد القاهر يرجع خفة الكلمة أو استثقالها لما يتركه تلاؤمها مع مكونات الجملة التي ترد فيها من حسن وأنس، أو ثقل ووحشة عند السامع، فإنّ أسامة بن منقذ (584هـ) لا يقدم لنا سر ذلك الشعور، بالرغم من أنه خصص بابا من أبواب كتابه "البديع في نقد الشعر "لهذا الفن سماه" الخفة والتثقيل"، وذكر من أمثلته قول أبي نواس:

دَعْ عنك لَوْمِي فإنَّ اللَّوْمَ إِغْراءُ وَدَاوِنِي بِالتي كانت هي الدَّاءُ

أخذه أبو تمام فأتى به في ألفاظ ثقيلة، فقال:

قَدْكَ اتَّئَبْ، أَرْبَيْتَ في الغُلَوَاء كم تعذلون وأنتم سُجَرَائي[12]

وعلق أحمد مطلوب على ما جاء به ابن منقذ قائلا: «لم يعلق ابن منقذ على هذا اللون، ويبدو من الأمثلة أن يريد به نوعا من الأخذ الموفق أو غير الموفق، أي أن الشاعر قد يحيل ما يأخذه جميلا وقد يصير ثقيلا غليظا»[13].

وإلى جانب هذا الباب، يورد ابن منقذ أبوابا أخرى لها اتصال واضح بمفهومي الخفة والاستثقال في الكلام، فالشعر الجميل هو الشعر الذي تتميز ألفاظه بما سماه "الرشاقة" وتبتعد عن "الجهامة"، حيث قال: «وأما الجهامة فهي الكلمات القبيحة في السمع...وأما الرشاقة فهي حلاوة الألفاظ وعذوبتها»[14]، وضمَّن ابن منقذ هذا الباب مجموعة من مظاهر البشاعة في الكلام الناتجة عن استثقال التشكيل الصوتي للحروف بالنظر إلى تقارب مخارجها، وهو ما سماه ابن جني استكراها، وما اعتبره ابن قتيبة تقعيرا وتقعيبا.[15]

وتحيلنا أوصاف الرشاقة والعذوبة في الكلام والشعر على مصطلح نقدي آخر كان له حضور وازن عند النقاد والبلاغين، وهو مصطلح المائية في الشعر، الذي

نتمنى بعد أن نستجلي بعض مظاهره، وأن نكون قادرين على بيان تعلقه بثنائية الخفة والاستثقال.

يقول الجاحظ (255هـ): «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير الألفاظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك» [16]، ويعتبر الحصري القيرواني صاحب كتاب "زهر الآداب وثمر الألباب"، أنّ النفس لا تنجذب إلا « لمعنى لطيف، ظهر في لفظ شريف؛ فكساه من حسن الموقع، قبولا لا يدفع، وأبرزه يختال من صفاء السبك وصحة الديباجة، وكثرة المائية في أجمل حلية» [17]، ويزيد السكاكي(626هـ) الأمر تأكيدا، ويعتبر أن الكلام يجب أن يكون سلسا كالماء، وذلك من موجبات الفصاحة اللفظية كما ترسخت في التراث البلاغي العربي، حيث يقول في سياق تحليله لآية:(وقيل يا أرض): « وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية، فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سليسة على الإسلات، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة» [18].

ونعتقد أن الاصطلاح المجرد للمائية فالشعر، والذي عادة ما نجد صعوبة في تلمس مقصود النقاد والبلاغيين به، شديد الارتباط بما نحن بصدده من مفهوم الخفة والاستثقال الذي وضعه سيبويه بوصفه آلية تحليلية لتمييز الكلام وقبول بعضه دون بعض، ومرجع ذلك إلى ما أسميناه 'النظر إلى الواقعة اللغوية بوصفها جسما طبيعيا'، فما العلاقة إذاً بين خفة الكلام ومائيته؟

مفتاح هذه العلاقة يمكن أن يتلمس فيما يعرف في الفلسفة القديمة بالطبيعيات، حيث نجد ابن حيان ينقل عن كتاب الكون والفساد لأرسطو قوله: "إنّ الرطب هو الذي لا ينحاز بحيز خاص، وينحاز بحيز غريب بسهولة"، ويقول "إنّ اليابس هو ما يعسر انحيازه بحير غريب ويسهل انحيازه بحيز خاص"[19]، بهذا المعنى فما كان رطبا كان لطيفا، وكانت له القدرة على الحركة والتحيز بسهولة في الأمكنة المختلفة، وأمّا ما كان يابسا فهو من الغلظة ما يجعله ثقيلا لا يبارح حيزه الخاص، ومن هذا المنطلق تظهر تلك العلاقة بين الخفة والرطوبة والماء، وبين الثقل واليبوسة والجفاف، فالكلام الخفيف هو الكلام الذي تعتريه رطوبة وليونة ومائية، أما الكلام الثقيل فهو ما يتلبسه الجفاف واليبوسة و الجهامة.

ب-أولية الإفراد على الجمع والتركيب: يعتبر سيبويه أنّ "الواحد أشد تمكنا من الجمع، لأن الواحد الأول"، فالعنصر المفرد أشد خفة وتمكنا من المؤلف، ويقدم صاحب الكتاب تعليله لهذه المسألة بقوله: «ومن ثم لم يصرفوا ما جاء من الجمع ما جاء على مثال ليس يكون للواحد، نحو: مساجد ومفاتيح» (الكتاب 47/1)، حيث يعتبر أن من أسباب المنع من الصرف أن يكون الجمع من الذي لا نظير له في الواحد، فمن كان جمعه بمنزلة الواحد تمكن من التنوين والصرف، وكان متمكنا.

لا يهمنا في هذا الموضع أن نتتبع موارد اشتغال هذا الأصل (الواحد أشد تمكنا من الجمع) في كتاب سيبويه ذاته، ولكننا نود أن نتتبع بعض الامتدادات المحتملة لهذا الأصل عند بعض النقاد والبلاغيين، ونتوجه صوب ابن سنان الخفاجي (466هـ) صاحب كتاب (سر الفصاحة) الذي يتوقف عند البيت الشعري المشهور لامرئ القيس:

فقُلتُ له لما تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وأَرْدَفَ أعْجازًا ونَاءَ بِكَلْكَلِ

ويبدو أن ابن سنان لم يستسغ التحليل البلاغي الذي قدمه أبو القاسم الآمدي (370هـ) عندما اعتبر أن هذه الاستعارة "في غاية الحسن والجودة والصحة، لأنه إنما قصد وصف أحوال الليل الطويل، فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث وترادف أعجازه وأواخره شيئا فشيئاً"[20]، ولعل هذ التراكب التصويري هو ما جعل ابن سنان لا يرضى بما قاله الآمدي غاية الرضى، حيث يقول: «وبيت امرئ القيس عندي ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها، بل هو من الوسط بينهما...وإنما قلت ذلك لأن أبا القاسم قد أفصح بأن امرئ القيس لما جعل لليل وسطا وعجزا استعار له اسم الصلب وجعله متمطيا من أجل امتداده، وذكر الكلكل من أجل نهوضه، فكل هذا إنما يحسن بعضه لأجل بعض، فذكر الصلب إنما حسن لأجل العجز، والوسط والتمطي لأجل الصلب، والكلكل لمجموع ذلك. وهذه الاستعارة المبنية على غيرها، فلذلك لم أر أن أجعلها من أبلغ الاستعارات وأجدرها بالحمد والوصف. وكانت استعارة طفيل وذي الرمة عندي وفق وأصح، لأنها غنية بنفسها، غير مفتقرة إلى مقدمة جلبتها»[21].

وبغض النظر عن مسألة انبناء الاستعارات على بعضها ودور ذلك في تحسين الصور الشعرية أو تقبيحها، وهو الأمر الذي ناقش فيه ابن الأثير ابن سنان وتتبعه فيه في كتابه المثل السائر[22]، فإنّ الذي يهمنا هو أنّ الانطلاق في التحليل من مبدأ "الواحد أصل الجمع وأفضل منه" هو الذي جعل ابن سنان يعتبر أن استعارة امرئ القيس ليست من مراتب الاستعارت الجيدة المحمودة، وذلك لأنها–كما يصرح بذلك في موضع آخر–بعيدة عن الأصل، فـ "البعيد المطرح إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل، أو لأجل أنه استعارة فتضعف لذلك"[23].

ج–أولية التذكير على التأنيث: من الأصول التي تؤشر عليها رسالة الكتاب، أصل أولية التذكير على التأنيث، وقد عبر عنه سيبويه بالقول: «واعلم أن المذكر أخف

عليهم من المؤنث لأن المذكر أول وهو أشد تمكنا»، ونتساءل هل تسرب هذا الأصل السيبويهي إلى النظر النقدي والبلاغي؟

من المصطلحات المتواترة في كتب النقد والبلاغة عند الحديث عن الإبداع الشعري والمهارة غير العادية في التعبير، مصطلح الفحولة والفحل؛ يقول صاحب الكليات في تعريفه للفحل: «الفحل القوي من ذكور الإبل يشبه به البليغ الكامل، وجمعه فحول»[24]، وإذا كان أبو البقاء الكفوي يربط صفة الفحولة بالمتكلم البليغ الكامل، وهو الأمر الذي سار عليه ابن سلام الجمحي (231هـ) مثلا في كتابه "طبقات فحول الشعراء"، فإن عبد الحميد بن يحي الكاتب نقل هذا الوصف ليعلقه باللفظ، فـ« خير الكلام ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا»[25]، فالكلام البليغ من هذه الزاوية هو ما كان حاصل تفاعل مخصب بين لفظ فحل قوي، ومعنى بكر جديد.

لا نريد في هذا المقام–وليس من شأننا– أن نعالج هذا الموضوع في امتداداته الجندرية والأنثربولوجية، لنترصد مظاهر ومستتبعات التفاضل بين الذكورة والأنوثة في الكلام (اللفظ =فحل ذكر، والمعنى= أنثى بكر)، ولا يمكن–من طبيعة الحال– أنّ نلبس سيبويه جناية تفضيل المذكر على الأنثى في الثقافة العربية الإسلامية، فالاعتبارات الدينية والاجتماعية تلقي بظلالها على الموضوع، لكن مناط اشتغالنا في هذا المبحث كان هو محاولة إيجاد أصول محتملة لبعض المصطلحات النقدية المتواترة في النقد والبلاغة العربيين كالماء والفحولة، على ضوء بعض المبادئ النحوية الموجودة في رسالة كتاب سيبويه، انطلاقا من تصور للعناصر اللغوية باعتبارها كيانات مادية متراتبة بحسب معيار الخفة والثقل.

خاتمة: لقد كان هدفنا من هذا المقال هو بيان أن سيبويه، بما صنعه في الكتاب، يعد الأب الحقيقي للبلاغة والنقد العربيين، وبذلك فما نقوم به ويقوم به غيرنا في الربط

بين الكتاب والبلاغة العربية هو دعوة لمؤرخي البلاغة والنقد لإعادة كتاب تاريخ هذين العلمين منطلقين من اعتبار كتاب سيبويه هو البداية الحقيقية لهما.

الهوامش:

[1]– أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 101/1.

[2]–أبو اسحاق الشاطبي، الموافقات، 116/4.

3– الزبيدي الأندلسي، طبقات اللغويين والنحويين، ص66.

4– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5– المصدر نفسه، ص68.

[6]– ابن جني، الخصائص، 34/1.

[7]– أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ص7.

[8] -Ahmed Alaoui, Herménologie coranique et argumentation linguistique, p79.

[9]– سيبويه، الكتاب، 65/1.

[10]– Ramzi Baalbaki, The legacy of the Kitab : Sibawayhi's analytical methods within the context of theArabic grammatical,pp59-60.

[11]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص46.

[12]– أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، ص204.

[13]– أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص256.

[14]– البديع في نقد الشعر، ص161.

15– نفسه.

[16]– الجاحظ، الحيوان، 131/3.

[17]– زهر الآداب وثمر الألباب، ص36.

[18]– مفتاح العلوم، السكاكي، ص531.

[19]– ابن حيان، رسائل ابن حيان، ص270.

[20]– ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص138.

[21]– سر الفصاحة، ص139.

[22]– ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 110/2 وما بعده.

[23]– سر الفصاحة، ص136.

[24]– أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص697.

[25]–محمد الغذامي المرأة واللغة، ص 7. نقله عن كتاب: عبد الحميد بن يحي الكاتب وما تبقى من رسائله، لإحسان عباس، دار الشروق، عمان، الأردن، 1988، ص29.

المصادر و المراجع

- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط2، 2007.
- أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد الحميد، مطبعة مصطفى الباب الحلبي، القاهرة، دون تاريخ.
- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، شرح عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2005،7.
- أبو البقاء الكفوي، الكليات، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط2، 1998.
- أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2007،2.

- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، صححه وعلق عليه عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، دت.
- سيبويه، الكتاب، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2009.
- الزبيدي الأندلسي، طبقات اللغويين والنحويين، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1984.
- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط2، القاهرة، دت.
- أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، الطبعة 6، دت.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992.
- Ahmed Alaoui, Herménologie coranique et argumentation linguistique, Ed Okad, Rabat, 1992.
- Ramzi Baalbaki, Te legacy of the Kitab : Sibawayhi's analytical methods within the context of theArabic grammatical theory,Brill, Leaden, Boston, 2008.
- M.Carter,Sibawayhi,oxford university press,2004.